مفهوم الفكرة بين ديكارت ولوك

the concept of the idea between Descartes and Locke

د/ طحطاح مبروك*

كلية العلوم الاجتماعية –جامعة زيان عاشور الجلفة-الجزائر

تاريخ الارسال: 2018/03/11 تاريخ القبول: 2018/07/03 تاريخ النشر: 2019/01/16

ملخص :النظرة التي أضحت أكثر شهرة في تاريخ الفلسفة الحديثة هي أن التجريبية كما أيّدها لوك مناقضة تماما لعقلانية ديكارت، وتبدو مواقف كل من ديكارت ولوك مناقضة لبعضها البعض. تبدو لي أنّ هذه الرؤية غير مرضية، ولذلك سأحاول دحضها.

هذه الدراسة هي محاولة لمناقشة مفهوم "الفكرة" بين ديكارت ولوك من أجل معرفة الدور الذي تلعبه في فلسفتيهما. ولإدراك الاختلاف أو الاتفاق بين الفيلسوفين. سأحاول أن أبرهن على أنّه ليس من السهل أن نجد مفهوما واحداً لمصطلح الفكرة عند ديكارت، والأمر نفسه بالنسبة للوك، هذا اللفظ يكتنفه الغموض بطرق عديدة في فلسفتيهما. فقد يشير لفظ الفكرة مرة إلى فعل التفكير، وأخرى إلى موضوع الفكر، وأحيانا أنّها تمثيل لموضوع ما. ومن الأكيد أنّه لا وجود للاختلاف بينهما فيما يتعلق باستعمالهما لهذا المفهوم، فقط من حيث المصدر والأنواع. اعتقد أنّ مفهوم لوك للفكرة هو أحد الأمثلة التي توضح مدى استعارته من ديكارت، ومن الصعب الشك بأن التصور ككل للأفكار كموضوع خالص للمعرفة هو من أصل ديكارتي.

كلمات مفتاحية: فكرة؛ إدراك؛ معرفة؛ فعل التفكير؛ موضوع الفكر؛ العقلانية؛ التجريبية.

Abstract: The view is becoming famous in the history of modern philosophy that the experimentalism upheld by Locke is direct against the Descartes rationalism, and the positions of Descartes and Locke have been set in antithetical opposition to each other. This view seems to me to be unsatisfactory. Therefore, I shall attempt to disprove it. This study is an attempt to discuss the notion of idea between Descartes and Locke in order to know the role that it plays in their philosophies. And to realise the difference or agreement between them.

I will try to argue that Locke's notion of idea is not easy to draw a single conception of the term idea, and the same thing with Descartes. This term is ambiguous in several ways in their philosophies. . The idea may refer to act of thinking, or the object of thought. or representation.. It is certainly that both Locke and Descartes are not different from each other in their usage to this notion. I think that Locke's notion of idea is one example of a term borrowed from Descartes. It can hardly be doubted that the whole conception of ideas as the proper object of knowledge is Cartesian in origin.

Keywords : Idea ; perception ; knowledge ; act of thinking ; object of thought; Rationalism ; experimentalism.

* - د/ مبروك طحطاح. أستاذ محاضر بقسم علم النفس والفلسفة، عضو مشارك في تأليف الكتاب المدرسي الوطني" إشكاليات فلسفية" لطلبة القسم النهائي شعبة آداب وفلسفة، من أعماله بالاشتراك كتاب" الفلسفة الإنجلوسكسونية" وبعض المقالات الدولية صادرة عن الجمعية الفلسفية المصرية، بيت الحكمة العراق، قسم الفلسفة المستنصرية العراق. tahtahmab@gmail.com

1-مقدمة:

من بين القضايا التي ظلّت تجول وتتردّد في ذهني دوماً منذ دراستي لمضامين الفلسفة الغربية الحديثة، وكانت تتطلب البحث والتقصي لاستجلاء حقيقتها، قضية تتعلق بالفصل التام والتمايز بين الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي، كأهم اتجاهات الفلسفة في العصر الحديث على وجه الخصوص. الظاهر والشائع معاً في تاريخ الفلسفة وعند الدّارسين، هو أنّ المذهب التجريبي ما قام إلا لهدم أسس ومبادئ المذهب العقلي، وأنّ مبادئهما متباينة ولا تلتقي ببعض. فلا المقدّمات والمبادئ ولا النتائج أيضاً بمتقاربة. ومحاولة منّا لبحث هذه القضية ارتأينا أن نبدأ بتفكيك هذه المسالة ونسعى لأن ندرس بعض مكوناتها. الواضح لدينا هنا هو أنّه لا يمكن البتّ في هذا الأمر إلا من خلال مؤسسيها التاريخيين، كنموذجين يمثلان تلك الاتجاهات، إذ يعدّ الفيلسوف الفرنسي " **رينيه ديكارت** " ممثلاً ومؤسساً للاتجاه العقلي الحديث، والفيلسوف الإنجليزي " **جون لوك**" كواضع أسس الاتجاه التجريبي، لأنهما بنظرنا هما من وضعا هذه الاتجاهات وميّزها بالمبادئ، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإننا لا ندرس مثل هذه الإشكالية المعقدة، والتي لا تنتهي – على الأرجح-إلى نتائج ثابتة ونهائية، إلا من خلال مضامين نختارها كموضوع لهذا الفحص. وأولى بالبحث من هذه المضامين، والتي يبدو فيها الفيلسوفان على طرفي نقيض، ومن ورائهما الاتجاه التجريبي والاتجاه العقلي، موضوع المبادئ والأفكار الفطرية. فهجوم لوك على المبادئ الفطرية يعتقد الكثير أنّه موجّه ضد ديكارت. لكنّنا نرى أنّ البحث في مثل هذه القضية أهم مطلب يرشدنا إلى فهم سؤال الفصل بين الاتجاهين الفلسفيين. وأهم ما يؤسس لمناقشة المبادئ والأفكار الفطرية، هي الأخرى عند كليهما، هو **<u>البحث في مفهوم الفكرة</u>** في حدّ ذاتها عند الفيلسوفين، لأنها منطلق وأساس الفلسفة عندهما. ومن هنا كان موضوع مقالنا هذا الذي نودّ أن يكون تأسيساً للقضية العامة التي طرحناها سابقاً وكانت إشكاليته. وعلى هذا الأساس نودّ أن نطرح الإشكال الآتي: ما المقصود بمفهوم الفكرة واستعمالها عند ديكارت ولوك؟ وهل هناك تمايز وفصل في هذا المفهوم بينهما؟

نعلم أنّ الخوض في مناقشة مثل هذه القضية ليس باليسير، فمفهوم الفكرة في عمومه يعدّ من أعقد المفاهيم التي استعملها الفلاسفة عبر التاريخ، لكنّنا نحاول مستأنسين في ذلك بالنصوص، سواء نصوص لوك وبالأخص في عمله " **مقالة في الفهم البشري**" من جانب، أو نصوص ديكارت من جهة ثانية، وأيضاً من خلال الاعتماد على بعض الدراسات الغربية التي تناولت هذا الموضوع ومقارنتها بعضها ببعض، ونحن ندرك في هذا مدى الصعوبة التي تواجهنا، فالموضوع بخصوصيته هذه يمثل بالنسبة للباحث هاجساً يتطلب التنقيب والفحص، وهذا ما نودّ أن نصبو إليه، وهو أن نجد الأرضية التي نناقش من خلالها مبررات الفصل بين الاتجاهين من عدمها. **فتحقيق هذا الهدف مرهون بمناقشة**

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

المبادئ والأفكار الفطرية، ومناقشة المبادئ والأفكار الفطرية مرتبط ضرورة بمناقشة مفهوم الفكرة في حدّ ذاتها، ولذلك كان موضوعنا هذا.

2 -العرض:

بين جون لوك ورينيه ديكارت:

السنة التي ولد فيها "جون لوك" ***John, Locke***(1632-1704) تعتبر من السنوات الهامة في تاريخ أوربا الغربية على وجه العموم، وبريطانيا على وجه الخصوص؛ فهي تمثل مرحلة انتقالية من حالة الاعتقادات المسيطرة إلى تحقيق الحرية، والتي استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر. عاصر كل من الفيلسوف العقلاني"سبينوزا"، و"ليبنتز" ؛ فقد ولد في السنة التي ولد فيها "سبينوزا"، وكان مولد "ليبنتز" صاحب الخصومة الشهيرة لـ"لوك"، وصاحب المناقشات الفلسفية الكبيرة بعده بأربع عشرة سنة، أما "بيكون" فقد توفي بست سنوات قبل مولد "لوك"، في حين توفي "**شكسبير**"***Shakespeare*** بستة عشر سنة قبل شهر أوت الذي ولد فيه "لوك"، وقتها مازالت بقايا الفلسفة الوسيطية ... والأشعار الميتافيزيقية سائدة في بريطانيا وأوربا(1).

أما " رينيه ديكارت" ***Descartes, René***)[1596-1650] فقد كان متأملا في هولندا في سنوات ميلاد "لوك"، وأصدر معظم وأهم كتبه الفلسفية هناك: "المقال في المنهج"، و"التأملات في الفلسفة الأولى"، و"مبادئ المعرفة البشرية"، و"لوك" لا يزال حينها في مرحلة الصبا. وقد توفي "ديكارت" قبل أن يغادر "لوك" مدرسة "وستمنستير"؛ وفي تلك الفترة أصدر "هوبز" كتابه الهام: "**رسالة في الطبيعة البشرية**" سنة 1642، وكتاب "**لوفيثيان**"(***Leviathan***) سنة 1651. وتبعت هذه الكتب بعرض "غاسندي" الذي دافع فيه عن نظرية "أبيقور". هذا التقارب الزماني والمكاني بين لوك وديكارت كان لا بد وأن تكون بينهما علاقة. لكن صورة هذه العلاقة التاريخية بينهما ومن ورائهما الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي تحتاج إلى فحص.

يذكر ديكارت في عمله " مقال عن المنهج" أنّه درس في مدرسة من أشهر المدارس في أوربا، وهي مدرسة لافلاش الملكية التي أسسها اليسوعيون، وكان عظيم التقدير للبلاغة، ومولعاً بالشعر، كما أعجب بالرياضيات على الخصوص. أمّا الفلسفة فكان أساتذتها من خيرة العقلاء لكن ليس فيها أمر ليس مشكوكاً فيه. وما إن سمحت له السن بالتحلّل من ربقة معلميه حتّى هجر الأدب، وقرّر ألاّ يلتمس علماً إلاّ ما اشتملت عليه نفسه أو ما كان في كتاب العالم، كما يذكر أنّه كان مجلاً للعلوم الدينية (2). لقد

1- Fraser. Alexander Campbell, **Locke**, William Blackwood and son, Edinburgh and London. MDCCXC, p:104.

2 - ديكارت رينيه، **مقال عن المنهج**، القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ص: 74-81.

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

اشتغل بالمنطق وبالرياضيات بفرعيها الجبر والهندسة، وعلى الرغم من العيوب التي تعتريها كان بها مزايا. ففكر في وجوب البحث عن منهج يحتوى، كما يقول، على مزايا تلك العلوم وخالياً من عيوبها([1]). ويذكر النقاد ومؤرخو الفلسفة من جانب آخر وبالمقابل أن "لوك" قد قرأ للفيلسوف الروماني "**شيشرون**"(***Cicero***) (106-43 ق.م)، واطّلع على التراث الفلسفي للعصر الوسيط، فورث الكثير من المصطلحات والتصورات الفلسفية الرئيسية من قبيل الجوهر، والأعراض، والكيفيات، والماهية، والجنس، والكليات التي احتوتها "المقالة"[(2)]. والواقع أنه بقدر ثورته ضد كل السلطات بشتى أنواعها، بما فيها السلطة المعرفية الموروثة، كان هناك تأثر أكثر مما كان "لوك" نفسه واع بها[(3)]. وفي العصر الحديث تأثّر بكتب "ديكارت"، و"بيكون"، و"هوبز" بصورة مباشرة أو غير مباشرة، شأنه في ذلك شأن كل مفكري وفلاسفة بريطانيا في تلك الفترة، ويذكر "لوك" على وجه الخصوص:"**روبرت بويل**"***Robert Boyle*** (1627-1691) و"رينيه ديكارت"، يأخذ، هذا الأخير، مكانة هامة في حياة لوك الفلسفية، ممّا ولّد كثيراً من التأويلات عن العلاقة بين المفكرين، ومن ورائهما العلاقة بين الاتجاهين الفلسفيين اللذين أسساهما، ونقصد بهذا الاتجاه التجريبي والعقلي. ما هو شائع وما هو متوارث أنّ الاتجاه التجريبي يرفض من حيث المبادئ ومن حيث النتائج كل ما هو عقلي، فالأسس الإبستيمولوجية بينهما تكاد تكون متباينة ومتناطحة، كما أنّ لوك كان ناقداً بالأساس لفلسفة ديكارت والديكارتية، وربّما الخصومة الشهيرة بين ليبنتز الديكارتي ولوك تمنحنا صورة هذا التعارض. لكن بالمقابل وعلى العكس من ذلك، لا يخفي لوك إعجابه بكتابات ديكارت، وأنّ المؤلفات التي منحته متعة وشغف القراءة الفلسفية وميله للمواضيع الفلسفية، كما تقول الليدي"**ماشام**" ***"Masham,Cudworth"*** (1659-1708) ابنة فيلسوف أفلاطونية كمبردج "كدوورث" ***Ralph Cudworth,*** (1617-1688)، هي مؤلفات "ديكارت" التي كان مبتهجا بقراءتها[(4)].إضافة إلى هذا أنّ لوك في انتقاداته وفي هجومه على المبادئ الفطرية، على الأقل، لم يذكر ديكارت على الإطلاق، هذا ما ولّد لدينا الحيرة والإحراج من جانب والرغبة لأن نبحث العلاقة بينهما بداية من مفهومهما للفكرة. ولذلك يجدر بنا أن نضع بين أيدي القرّاء المفهوم الذي قدّمه لوك للفظ الفكرة، وأيضاً كما وظّفها ديكارت حتّى يتسنى لنا معرفة تلك العلاقة بين الفيلسوفين من خلال المبادئ والأفكار الفطرية لاحقاً في مقال مرتب. لكن سنتجنب الخوض في تفصيلاتها المتعلقة بتصنيف الأفكار عند كليهما والتركيز على المفهوم فقط.

---

[1] - المصدر نفسه، القسم الثاني، ص ص:92-96.

[2] - Aaron, Richard I, **.John Locke.,** 2 nd. E, Oxford press, 1955, p: 8.

[3] - Copleston. Frederick., **A history of philosophy,** V:7/ part I, Image books, New. York, p:76.

[4] - Fraser, Alexander Campbell, **Locke**, op.cit., p: 12

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

مفهوم الفكرة تاريخياً:

يعدّ مصطلح الفكرة واحداً من أهم التصورات الفلسفية غموضاً والتباسا لدى الفلاسفة، واللفظ مترجم حرفياً عن الأصل اليوناني الذي يعني على وجه العموم الصورة ***Forma***[***Form***] في لغة العصور الوسطى اللاتينية الفلسفية(1). بالنسبة لاستعمال أفلاطون ***Plato*** (427-ق.م-337ق.م) وأتباعه للفكرة، فهي لا تعني إلاّ الشكل والصورة فقط، حتّى وإن لفظ الصورة يرتبط ***بأرسطو Aristotle*** (384ق.م-322ق.م) أكثر منه بأفلاطون، وهي ليست حالة للذهن العارف بقدر ما هي موضوع متميّز ومستقل عن الذهن(2) . يستعمل أفلاطون لفظ ***eideos/ idea*** من لفظ يرى، أي أنّ أصل المعنى حسّي، نشأ من رؤية أشكال الأجسام (الشكل المرئي) أو الهيئة، ثم أصبح يطلق على المعنى الكلّي المعقول(3). الصورة هي، إذن، الموضوع الذهني والمقابل العقلي لعالم الأشياء، لكن بالنسبة لأفلاطون وأتباعه، الأفكار أو الصور هي عبارة عن موضوعات الفهم الخالدة وغير قابلة للتغيير. وعلى الرغم من أنّ الفيلسوف الأفلاطوني يهدف إلى أن يوجه عقله نحو الصور، إلاّ أنّ الأفكار أو الصور التي يتصورها أفلاطون ليست وحدات أو عناصر نفسية تعتمد في وجودها على العقل الإنساني، بل بالأحرى، هي موضوعات تملك حقيقة مستقلة عن العقل(4). هذه الأفكار أو الصور(المثل) هي نماذج أصلية(***archetypes/ paradigms***) لموجودات الحياة اليومية الحسية، وموجودة في عالم مستقل عقلي ومختلف هو عالم المثل. أمّا الموجودات الحسية فهي مجرد ظلال أو نسخ فقط من المثل.

يتكرر هذا التصور للفكرة في فلسفة العصور الوسطى المسيحية، فالفيلسوف المسيحي المتأثر بالتصور الأفلاطوني يتحدث عن الأفكار كنماذج خالدة موجودة في العقل الإلهي، كما قال بذلك القديس أوغسطين ***St.Auguestine*** (354-430م)، ثم يعاد ظهور هذا التصور لاحقاً من جديد في كتابات القديس توما الإكويني" ***St.Thomas Aquinas***(1225-1274م)..الأفكار التي هي نماذج (***examplars***) ..يجب ألاّ تكون موجودة في مكان آخر سوى في عقل الله"، على الرغم من أنّ الإكويني قد تأثر بالنزعة الأرسطية المضادة للتصور الأفلاطوني(5). إذن يكاد يكون مفهوم الفكرة متأرجحاً بين الصورة الأفلاطونية والصورة الأرسطية في العصور الوسطى، وأمتد ذلك التأثير حتى عصر ديكارت ولوك، فهل ورث ديكارت ولوك هذا المفهوم مثل كثير من المفاهيم التي أطرت الفكر الغربي بهذه الصورة، أم لهما

1- Cottingham John, **A Descartes Dictionary** ,Blackwell Publishers, Oxford. , U.K., 1993. p :77.

2- فؤاد زكرياء، جمهورية، **أفلاطون**، دار الوفاء الإسكندرية، 2004، ص: 148.

3 - الأهواني، أحمد فؤاد، أفلاطون، نوابغ الفكر العربي، دار المعارف. القاهرة، ط4، ص: 108.

4 - أفلاطون، **محاورة بارمنيدس**، .132 د ، ترجمة، حبيب الشاروني، مكتبة الإسكندرية، 2002.، ص ص: 23-24.

5 - Cottingham John, **A Descartes Dictionary** , *Op.cit.,* P :77.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

جدّة في ذلك؟ وإذا كان كذلك فهل هناك تباين في هذا الجديد؟ بصيغة أوضح، ماذا يعني ديكارت ولوك بمفهوم الفكرة واستعمالهما لها؟

مفهوم الفكرة بين لوك وديكارت:

في البدء نشير إلى أنّه لا تفهم فلسفة "لوك" وفلسفة " ديكارت"معاً، ومناقشتهما لموضوعات البحث الفلسفي إلا من خلال تصور محوري هام، فهما يعتمدان معاً في فلسفتهما على هذا المصطلح، ونقصد بذلك لفظ "**الفكرة**"، ولا يوجد مصطلح أكثر استعمالاً عند كليهما منه في أعمالهما. شعور "لوك" بتكراره للمصطلح جعله يستسمح القارئ على ذلك في مقدمة عمله الهام " الفهم البشري"[1]، لكنه ظل يكرره لأهميته، والأمر نفسه بالنسبة لديكارت الذي جعل من الفكرة أساس فلسفته برمّتها. وعلى هذا الأساس كان من الضروري فهم استعمالهما لمعنى الفكرة، لأن جميع مفاصل فلسفتهما لا تتأسس إلاّ عليها.

كما نشير ثانية، وبصورة مقتضبة أيضاً، إلى دورها في المعرفة عند كل منهما. بالنسبة للوك، أنّه بدون الأفكار لا يمكن أن تكون هناك معرفة حقيقية، أو اعتقادات، أو آراء، أو شكوك، أو حتى أخطاء؛ إذن يسلم لوك جدلاً بأنه بدون الأفكار لا وجود للمعرفة، أو الاعتقاد، وحتى الشك. كما يسلّم أيضاً أنّه يمكننا أن نملك أفكاراً دون أن تكون لدينا معرفة. المعرفة إذن، تفترض مسبقاً وجود الأفكار، لكن الأفكار لا تفترض مسبقاً وجود معرفة(2).

هذا التصور لدور الفكرة ولعلاقتها بالمعرفة لا يختلف مع ما أقرّه ديكارت أيضاً، إذ لا يتأسس البحث عن اليقين إلاّ على الفكرة؛ إثباتاته لوجود الله إنّما تنبني عن فكرة يجدها في نفسه فطرية مصدرها الله ذاته يقول ديكارت:"...وإذن فلا يبقى ما يقال بعد ذلك إلاّ أنّ هذه الفكرة (عن الله) ولدت ووجدت معي منذ خلقت...والحق أنّه لا ينبغي أن نعجب من أنّ الله حين خلقني غرس فيّ هذه الفكرة لكي تكون علامة الصانع مطبوعة على صنعته"(3). وإثباته لوجود العالم الخارجي يتم حسبه من خلال الأفكار الحسية التي يجدها في نفسه مشابهة للأشياء الحسية يقول ديكارت: "...ولما كانت الأفكار التي كنت أتلقاها عن طريق الحواس أكثر حيوية وأقوى تعبيراً..فقد بدا أنّه لم يكن من الممكن أن تصدر عن نفسي، وأنّها لا بد أن تكون قد أحدثتها فيّ أشياء أخرى"(4). وهكذا لا تتم المعرفة إلا من خلال الأفكار التي يجدها في نفسه، سواء كانت حسية أو فطرية، وهو ما أكده بوضوح في رسالة له إلى اللاهوتي

---

1 - Locke. John, **An Essay Concerning Human Understanding,** collated by. A.C. Fraser, V.I., Oxford The Clarendon Press, Intro. §8, p: 32.

2 - Fraser, Alexander Campbell, **Locke**, *Op.cit.,* P: 122.

3 - ديكارت، رينيه، **تأملات في الفلسفة الأولى**، التأمل الثالث، (تصدير). ت/ عثمان أمين، المركز القومي للترجمة، 2009، ص:163.

4 - المصدر نفسه، التأمل السادس، ص:240.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

الفرنسي ***Gibieuf,Guillaume.*** (1583-1650) حين يقول أنّه "..لا يستطيع أن تكون لديه معرفة عن ما هو خارج الذات ما لم يتم ذلك عن طريق الأفكار التي يملكها في داخل عقله"(1)

لكن السؤال المشروع في هذا السياق هو ما المقصود بالفكرة عند كل منهما؟ لكن يجب أن ننبه أنّنا لا نخوض إلاّ في قضية المفهوم فقط، ولذلك لا ندخل في تفصيلات التصنيف للأفكار اللهم إلاّ إذا كان ذلك على سبيل الإشارة فحسب.

1-مفهوم الفكرة عند ديكارت:

يعترف ديكارت في تصديره لكتاب "التأملات في الفلسفة الأولى"*، وللتذكير تعدّ " التأملات" من روائع المؤلفات الفلسفية على الإطلاق، بغموض لفظ الفكرة، ويخص بذلك فكرة وجود كائن أكمل منه، في ردّه على بعض الاعتراضات يقول ديكارت "..لفظ الفكرة هنا فيه التباس: لأنّه إمّا أن تؤخذ الفكرة على وجه مادي كعملية من عمليات الذهن، وبهذا لا يمكن أن يقال أنّها أكمل منّي. وإمّا أن تؤخذ على وجه موضوعي، بمعنى الشيء الذي تمثله هذه العملية..(2). ويقدّم تعريفه للفكرة وهو في معرض ردّه على الفيلسوف الإنجليزي "توماس هوبز"***Hobbes, Thomas***(1588-1679) حيث يقول : " آخذ لفظ الفكرة لأشير بها إلى أي شيء يكون مدركاً بصورة فورية بواسطة العقل"([3])، ويقول في نص آخر"إنّي أفهم بهذا اللفظ لأقصد به صورة أي تفكير معطى، إدراك فوري الذي يجعلني على وعي بذلك التفكير. وبالتالي، متى أعبّر عن شيء بألفاظ وأفهم ما أقوله، فهذه الحقيقة تجعل من المؤكد أنّه يوجد بداخلي فكرة ما تدلّ عليه تلك الكلمات".(4) أمّا الصور الموجودة بالمخيلة فلا يعدّها ديكارت في هذا النص بذاته بالأفكار على الإطلاق، ذلك لأنّها مخزنة في جزء من الدماغ. يسمي أفكاراً فقط تلك التي تكون من العقل نفسه. لكن بالمقابل في كتابه "القواعد" يقول ديكارت أنّه.".إذا كانت المخيّلة جزءاً من الجسم، أي جزءاً من الجوهر المادي، وإذا كانت الأفكار مطبوعة في المخيلة، إذن، تلك الأفكار وجبت أن تكون مادية"(5)

---

[1] - letter to Gibiuef, On 26january 1642, In CSMK. (translated), **the philosophical writings of Descartes.** V/3, Cambridge University Press, 1985, p:201.

* يعرف بكتاب "تأملات ميتافيزيقية" ويتضمن ستة تأملات: الأول في الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك. الثاني: في طبيعة النفس الإنسانية وأن معرفتها أيسر من معرفة الجسم. الثالث: في الله وأنا موجود. الرابع: في الصواب والخطأ. الخامس: في ماهية الأشياء المادية والعودة إلى الله ووجوده. السادس: في وجود الأشياء المادية وفي التمييز الحقيقي بين النفس والإنسان وبدنه.

[2] - ديكارت رينيه، **تأملات في الفلسفة الأولى**، (تصدير). ت/ عثمان أمين، المركز القومي للترجمة، 2009، ص ص:48-49.

[3] - **the philosophical writings of Descartes**, V/2..translated by(CSM), Cambridge University Press, 198, pp:127.

[4] - **the philosophical writings of Descartes,** V/2, *Op.cit.*, P: 113.

[5] - Descartes, Rene, Rules in Deborah, A. Boyle(ed), **Descartes on Innate Ideas,** Continum International Publishing, London, 2009, P :- 9

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

.وهكذا لا نستطيع أن نقبض على مفهوم موحد للفكرة من البداية ومن خلال النصوص البسيطة التي قدّمناها، فالحصول على أمر واضح، فيما يتعلق بما يقصد ديكارت بالفكرة، أمر معقد بسبب استعمالات ديكارت له؛ وقد حصرت الباحثة الأمريكية المعاصرة ***Deborah Boyle*** مواطن الغموض والالتباس في لفظ الفكرة عند ديكارت في نقاط محدّدة، ويمكننا أن نجملها في طريقين متمايزين:

أولاً، يختلف تصور ديكارت للفكرة حسب تطور أعماله الفلسفية، ففي أعماله المبكرة، ونخص هنا بالذكر كتاب " قواعد لتوجيه العقل"، و"كتاب العالم"، وكتاب " مقال عن المنهج"، وكتاب" مقالة عن الإنسان" يتردّد ديكارت بين أن تكون الفكرة حالة ترتبط بالدماغ (***brain state***) مرة، وبين كونها حالة ترتبط بالعقل مرة أخرى، أي غموض الفكرة في هذه الأعمال بين المعنى المادي والمعنى الذهني للفكرة، أو بين كون الأفكار أحوالاً للجوهر العقلي، أو أحوالاً للجوهر المادي، ويظهر جلياً من بعض النصوص الواردة فيها. بينما في كتابه " التأملات في الفلسفة الأولى"، وكتاب " مبادئ الفلسفة الأولى" فيستعملها ليصفها على أنّها ظاهرة عقلية خالصة. وهذا ما يبدو أيضاً في أعماله المتأخرة مثل "انفعالات النفس"، وكتاب " البحث عن الحقيقة".

ثانياً، وهذا أكثر أهمية، حيث يشير ديكارت في مقدمة كتاب" التأملات" إلى أنّ لفظ الفكرة (ونفهم الآن أنها ظاهرة ذهنية أكثر منها كحالة ترتبط بالدماغ) يطرح جانبا يتعلق بالمعنى، وهنا نفهم منها معنيين: الفكرة كفعل للتفكير، والفكرة كموضوع للتفكير. هذا هو الالتباس الثاني في مفهوم الفكرة، خاصة في الاعتبار الثاني، حيث ينعكس بالضرورة على مفهوم الفكرة الفطرية أيضاً.(1).

لنأخذ بعض النماذج من النصوص عن هذا التردّد؛ في أعماله المبكرة مثل كتاب " قواعد لتوجيه العقل"، وكتاب " العالم"، وكتاب "مقالة عن الإنسان"، يستعمل ديكارت الفكرة بمعنى مختلف تماماً لتصف أحوال كل من الجواهر المفكرة والجواهر المادية أيضاً؛ وبعبارة أخرى، أن لفظ الفكرة في أعماله المبكرة هي غامضة بين المعنى المادي والمعنى الروحي. في كتابه القواعد يقول ديكارت أنّه..إذا كانت المخيّلة جزءاً من الجسم أي جزءاً من الجوهر المادي، وإذا كانت الأفكار مطبوعة في المخيلة، إذن، تلك الأفكار وجبت أن تكون مادية(2). أمّا في كتابه "العالم" فيستعمل ديكارت لفظ الفكرة ليشير بها إلى حال للجوهر العقلي، لكن عادة ما يستعمل عبارة" الأفكار التي نملك في أذهاننا" فهو يشير إلى أنّه يعتقد أنّه يمكن أن تكون هناك أفكار أخرى لا توجد في الذهن، وهذا يعني أن تكون هناك أفكار في الجسم أيضاً. يظهر هذا الاستعمال بالضبط في كتاب " مقال عن الإنسان". في هذا العمل يشرح ديكارت كيف يمكن لآلية الجسم الإنساني (التركيب الميكانيكي) أن تعمل حتّى وهي غير متصّلة بالنفس العاقلة. وفيما يخص

[1] - Deborah, A. Boyle, **Descartes on Innate Ideas**, *Op.cit.,* P :7.

[2] - Descartes, Rene, Rules in Deborah, A. Boyle(ed), **Descartes on Innate Ideas**, *Op.cit.,* p: 9

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

اعتباره للحس فإنّه يسمي الصور التي تشكّلت في المخيّلة الجسمية بالأفكار. ويؤكد صراحة أنّه يرغب في أن يطبق لفظ الفكرة عموماً على كل الانطباعات التي تتلقاها الأرواح كما مرّت من الغدّة الصنوبرية (موقع الخيال والحس المشترك). فهي كينونات مادية بهذا الاعتبار، أمّا الانطباعات التي تتلقاها، كما يبدو، فهي ترتيبات فيزيائية موصلة إليها. وبهذا فلفظ الفكرة يدل على كينونة، ويستعمل ليوصف بها حادثة تتعلق بالدماغ، هي بالأساس شيء ما مادي جسمي أكثر منه نفسي.

وبالمقابل قد استقر رأيه في الأعمال المتأخرة على أنّ الفكرة ترتبط بالجوهر الفكري. في ردّ ديكارت عن اعتراضات كل من "هوبز" ***Hobbes, Thomas*** (1588-1679) و"غاسندي" ***Gassendi, Pierre*** (1592-1655) على كتابه "التأملات". اعترض كل من غاسندي وهوبز على مفهوم الفكرة الذي قدّمه ديكارت وربطا المفهوم بالصورة، إذ أخذا مفهوم الفكرة مرادفاً للصورة. يقول "توماس هوبز" في الاعتراض الخامس على التأمل الثالث: "بعض هذه الأفكار الإنسانية هي كما لو أنّها صور الأشياء..وهذا هو المعنى المناسب للفظ الفكرة..عندما أفكر في إنسان ما فأنا على وعي بفكرة أو صورة مؤلفة من شكل ولون"[1] ، في ردّه على هذا كتب ديكارت في المجموعة الثانية من الردود، يقول بأنّه لا يسمّي على الإطلاق تلك الصور المطبوعة في جزء من الدماغ بالأفكار، فقط تلك الصور التي ترتبط بالعقل ذاته[2]. وهذا بالتأكيد صحيح في كتابه التأملات وبعض أعماله المتأخرة.

هذا الغموض والتردّد في مفهوم الفكرة عند ديكارت-حسب الباحثة ***Deborah***.A.***Boyle*** - بين معنيين لمفهومها لن نجد له تفسيراً مقنعاً سوى بربطه بتطور مذهب الثنائية المشهور في تاريخ الفلسفة بالثنائية الديكارتية، أي تطور نظريته في الجوهر المادي والجوهر الفكري. فعند كتابة " القواعد" يكون ديكارت قد شكّل مذهبه بوضوح في الجوهرين. كما نلاحظ أنّ بدايات مذهب الثنائية كانت في كتاب " العالم" و"مقالة في الإنسان". فقط في كتاب "التأملات" اكتشف ديكارت تشعّب فكرة ثنائية الجوهر فأدرك أنّه بحاجة إمّا إلى تحديد الفكرة في معنى ذهني فكري خالص، أو التأكيد على أن لفظ الفكرة يملك معنيين، فالنص المشار إليه سابقاً من الردود الثانية يبيّن أنّ ديكارت اختار الرأي الأول، لكن منذ وقت التأملات أكّد تماماً على أنّه يقصد بالفكرة حال التفكير فقط.[3]

لكن سيظهر التباس جديد وهام، في أعماله المتأخرة، فيما يخص باستعماله لمفهوم الفكرة؛ فبينما يستعمل الفكرة باتّساق في أعماله المتأخرة ليعبّر بها عن المعنى الفكري الذهني أكثر من كونها ظاهرة فيزيائية، نجده يشير في مقدمة التأملات رداً على بعض الاعتراضات تتعلق بوجود فكرة في ذهني عن

[1] - **the philosophical writings of Descartes**, V/2,*Op.cit.,* p: 126.

[2] - *Ibid,* V/2, p: 113.

[3] - Deborah, A. Boyle, **Descartes on Innate Ideas**, *Op.cit.,* P : 10.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

شيء أكمل منّي، ليجيب ديكارت بأنّ لفظ "فكرة" المستعمل هنا فيه التباس: لأنه إمّا أن تؤخذ الفكرة على وجه مادي، بمعنى عملية من عمليات ذهني، ...وإمّا أن تؤخذ على وجه موضوعي بمعنى الشيء الذي تمثله هذه العملية" (1). إذن مفهوم الفكرة– حسب نصه هذا -يمكن أن يأخذ المعنى المادي كعملية للعقل، أو المعنى الموضوعي، وبعبارة أخرى، يمكن أن تشير الفكرة إلى **فعل التفكير**، أو قد تشير إلى **موضوع ذلك الفعل**، مثلاً عند الإشارة إلى فكرة شخص ما عن الحصان، فديكارت قد يقصد بها أنّه يشير بها إلى الفعل الذي بواسطته يفكر ذلك الشخص في الحصان (الفكرة في المعنى المادي)، لكن قد يقصد بها أيضاً الإشارة إلى موضوع تفكير ذلك الشخص، هذا يعني الإشارة إلى الحصان ممثلاً (الفكرة تمثل الحصان)، وهذا هو المعنى الموضوعي للفكرة(2). هذا التمييز، حسبما يشير مؤلف "نظرية الأفكار" الفيلسوف الأمريكي المعاصر(*) ***Vere Claibone Chappell*** هو مفتاح فهم نظرية ديكارت ككل في الأفكار، والتي تعدّ في حدّ ذاتها المكوّن المحوري لنظريته في المعرفة(3). هذا التصور الديكارتي للفكرة وتعدّد استعماله لها يفرض على المتتبع والقارئ غموضاً وإرباكاً.

بقي أن نشير إلى أنّ ديكارت يقرّ بأنواع ثلاثة من الأفكار عندما يقول ديكارت: "..ولكي يتيسر لي سبيل النظر في هذا، دون إخلال بنظام التأمل الذي رسمته لنفسي[...] أقول لابد هنا من أن أقسم خطرات نفسي أجناساً، وأن أنظر في أي من هذه الأجناس يقع الخطأ والصواب على جهة التحديد. من خواطر نفسي ما يكون أشبه بصور الأشياء، وهذه وحدها يطابقها اسم "الفكرة" على التحديد؛ مثال ذلك أن أتمثّل إنساناً، أو غولاً، أو السماء، أو ملكاً، أو الله نفسه. ومنها أيضاً ما يكون له صور أخرى؛ فإنّي مثلاً حين أريد، أو أخاف، أو أثبت، أو أنفي، إنّما أتصور دائماً شيئاً هو كالحامل لفعل ذهني، ولكني أضيف أيضاً شيئاً آخر بهذا الفعل إلى الفكرة التي لديّ عن ذلك الشيء؛ وهذا الضرب من الخواطر بعضه يسمى إرادات أو أهواء وبعضه يسمى أحكاماً...[لكن من بين هذه الأفكار] بعضها يبدو مفطوراً فيّ، وبعضها غريباً عنّي ومستمد من الخارج، والبعض الأخر وليد صنعي واختراعي"

ومهما كانت هذه الأنواع من الأفكار، فالأكيد أنّ مفهوم الفكرة لم يكن واحداً، ولا غرابة إذن من كثرة التأويلات من الدّارسين لفلسفة ديكارت ككل ولمكوناتها على وجه الخصوص. عدم التحديد هذا والتردّد بين أن تكون الفكرة حالاً للجوهر المادي، أو أن تكون حالاً للجوهر الفكري من جهة، أو يمكن أن تشير

[1] - ديكارت رينيه، **التأملات في الفلسفة الأولى**، تصدير من المؤلف إلى القارئ، مصدر سابق، ص ص:48-49.

[2] - Deborah, A. Boyle, **Descartes on Innate Ideas**, *Op.cit.,* P : 10.

[*] Vere Claibone Chappell (1930- .) فيلسوف أمريكي معاصر مهتم بالفلسفة الحديثة وتاريخ الفلسفة نشر مجموعة مقالات تضمنت سيرته العلمية ومؤلفاته، كتب فلسفة الذهن ، فلسفة هيوم 1963، هيوم 1966.مقالات عن الفلسفة الحديثة (12 جزء) 1992، وغيرها.

[3] - Deborah, A. Boyle, **Descartes on Innate Ideas**. *Op.cit.,* p:13.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

إلى فعل الإدراك أو الموضوع المدرك من جهة ثانية. جعل من قرّاء ديكارت يتردّدون في تأويلاتهم لقضايا كثيرة من فلسفته.

1- مفهوم الفكرة عند لوك:

أخذ "**لوك**" على عاتقه مشروع تأسيس بحث يتعلق بالمعرفة البشرية، وذلك من خلال الهدف الذي سعى إلى تحقيقه، والذي وصفه في الفصل الأول من كتابه الرئيسي: "**المقالة في المفهم البشري**"[*] "***An Essay concerning Human Understanding***" بقوله: «البحث في أصل وحدود المعرفة البشرية ويقينها، مع بيان أسس درجات الاعتقاد والظن والموافقة»[(1)]. يعتقد"**لوك**" أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة، تقتضي مبدئياً بيان كيفية الحصول على المعرفة، فالمعرفة أشبه ما تكون بـ"**مادة إنتاجية**" (***Article of manifacture***)، ومن ثمّة، تساءل عن المادة الأولية (***Raw material***) أو الفكرة التي نحصل من خلالها على المعرفة من حيث مصدرها، وكيفية توظيفها للحصول على المعرفة الصحيحة، مع العلم أنّ طبيعة هذه المادة لا تمثل بالنسبة لـ"**لوك**" مشكلة[(2)]، لكنّ بالنسبة لقرّاء "المقالة" يجدون الأمر مختلفاً جداً.

من بين ما شعر به لوك أيضاً وعبّر عنه في مقدمة كتابه" مقال في الفهم البشري"، في رسالته إلى القارئ أنه كتبه في أجزاء غير متماسكة ... واستأنف كتابته مرة أخرى بعد فترات طويلة من تركه عندما سنحت له حالته النفسية والفرص"، وهذا ما جعل مؤرخ الفلسفة الإنجليزي"فريدريك كوبلستون" يربطه بعدم استخدام لوك للمصطلحات الواردة في كتابه باستمرار بنفس المعنى، وإلى هذا الحد يصعب متابعته[(3)]، ويضيف في صفحات لاحقة تنبيهه إلى أنّه لابد من لفت النظر إلى الاستخدام الغامض لمصطلح الفكرة. الأمر ذاته شعر به [**جون يولتون**] ***Yolton, John*** (1921- /) صاحب كتاب **"جون لوك وطريق الأفكار"** حين أكد أنّ "..الكثير من النقاد لعمل لوك كانوا مربكين جداً من استخدام لوك للفظ الفكرة". ويعترف "هنري لي" أنّه لم تكن لديه المقدرة على تتبع لغة "المقال" طالما أنها كتبت بنوع

---

* يعرف بـ"المقالة" أو "الفهم البشري"، و هو أهم أعمال جون لوك. يتضمن العمل أربعة كتب: الأول: في المفاهيم الفطرية، الثاني: في الأفكار. الثالث: في الألفاظ. الرابع: في المعرفة والرأي. إضافة إلى " رسالة إلى القارئ" قدّم بها العمل.

[1]) - John Locke, **An Essay Concerning Human. Understanding**, London, George Rutledge and sons limited, N.Y: E P. Duton and Co., book1, chap 1, p:1.

[2])- A. J. Ayer. And R. Winch, **British Empirical Philosophers**, Routledge and Regan Paul, L T D London, 1965, Int. p: 10.

[3] - كوبلستون، فريدريك، تاريخ **الفلسفة، ج5**، المجلد الخامس، ت/ محمود السيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة مصدر، الطبعة الأولى، 2003، ص:99.

0592 – 2253 :ISSN/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

جديد من اللغة(1). يمكن أن نشير، ونحن بصدد عرض تصور لوك للفكرة واستعماله لها، إلى تلك الصعوبات المشابهة لتلك التي وجدناها مع ديكارت، وربما نشير إلى أمرين: أولاً، سعة مفهوم الفكرة كما أوردها لوك في كتاباته. وثانياً، تعدّد معاني الفكرة وما صاحبها من تردّد في استعماله لها.

أمّا ما تعلّق من سعة مفهوم الفكرة وشموله لمجالات كثيرة ومتنوعة فنلاحظه منذ البداية، أي بداية عمله أو في افتتاح كتابه "**الفهم البشري**"، إذ يحدّد لوك معنى الفكرة بقوله: "يجب هنا أن أستسمح القارئ على الاستعمال المتكرر للفظ الفكرة الذي يجده في المقال...(فهي تعني) كل شيء يكون موضوعاً للذهن حين يفكر إنسان ما " ويردف قائلا: "والمقصود باستخدام هذا، هو ما نعنيه بالصور الوهمية "***phantasm*** "، والمفهوم ***notion***، والأنواع ***species*** ، أو أي شيء يستخدمه الذهن أثناء عملية التفكير" (2)، يستعمل لوك مصطلح التفكير بصورة واسعة ليغطي كل النشاطات المعرفية الممكنة، لفظ الفكرة يتضمن: أولاً، الصور الوهمية التي تعني المعطى الحسّي، والذكريات، والصور، وثانياً، المفاهيم فتخص التصورات الأكثر تجريداً، وثالثاً الأنواع سواء كانت حسية أو عقلية. ويلخص "**كامبل فريزر**"***Campbell Fraser*** (1819-1914) ما يعنيه "لوك" باستخدام الفكرة بقوله: « عندما نشتم رائحة طيبة أو كريهة، أو نسمع صوتاً لطيفاً أو مشمئزاً، عندما أنظر إلى الشجرة، أو ألمس شجرة، أو أتذكر أيّ من هذه الموضوعات، عندما أتخيل حيواناً خرافياً..أو أدرك معنى الدائرة، والكوكب، والحكمة، والعدالة، أو أيّ لفظ عام آخر. لكل هذه الحالات، يقول "لوك" إنّي أملك أفكاراً»(3). وهكذا فلفظ الفكرة يتضمن عناصر كثيرة ومختلفة عن بعضها البعض، المعطيات الحسية، الذكريات، الصور، التصورات، الأفكار المجردة، المختلفة فيما بينها، وهذا الاتساع فيما يتضمّنه اللفظ، حيث تنتظم كل الموضوعات الفورية للفهم تحته، يؤدي بالضرورة إلى الغموض والارتباك. لقد أراد لوك أن يجد لفظاً واحداً ليضم كل الموضوعات الفورية للفهم، لكن استعماله للفظ الفكرة بهذا الأسلوب الواسع الفج يؤدي إلى الغموض.(4) هذا الاتساع فيما يتضمّنه لفظ الفكرة يضاف إليه الاستخدام

---

1 - Yolton. John, **Locke and the way of ideas,** Oxford, at the Clarendon press, 1968, p :87.

2 - Locke, John, **An Essay concerning Human Understanding**, Introd. N8, p : 32.(*I must here . . . beg pardon of my reader for the frequent use of the word idea، which he will find in the following treatise. It being that term which، I think، serves best to stand for whatsoever is the object of the understanding when a man thinks، I have used it to express . . . whatever it is which the mind can be employed about in thinking*)

3 - Fraser, Alexander Campbell, **Berkeley**, William Blackwood and Sons, Edinburgh and London, mcmiii, PP:17-18.

4 - Aaron, Richard I, **John Locke,** Op.cit., p : 100.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

الفعلي للمصطلح من طرف لوك في "المقالة"، فكثيراً ما يتجاوز باستعماله الفعلي هذا للفظ الحدود الواسعة أيضاً، وهذا جلي في "المقالة".

ونجد التردّد في المقالة في استعمال لوك للفظ فكرة، حيث يقصد بها ليس فقط موضوع التفكير، ولكن التفكير في حدّ ذاته، أي إدراك الموضوع. هذا النقد وجّهه كثير من الفلاسفة والنقاد أمثال، "توماس ريد"***Reid, Thomas*** (1710-1796)، والأمريكي "جيمس غبسون"***Gibson, James*** (1904-1979)، والألماني"إدموند هسرل"***Husserl, Edmund*** (1938-1959)، وغيرهم، وأيده "ريتشارد آرون"***Aaron, Richard*** (1901-1987) مستدلاً في ذلك بأن لوك يستخدم الإدراك ليقصد به **فعل الإدراك** ويقصد به **ما هو مدرك** أيضا [1]، ويستخدم لوك لفظ الفكرة باتّساق ليقصد به الموضوع الفوري للإدراك والتفكير.

حقيقة أنّ لوك يستعمل لفظ "إدراك" ليقصد بها كلاً من فعل الإدراك وما هو مدرك، وبالجملة يبدو في هذا الصدد أنّه يستعمل لفظ فكرة باستمرار ويقصد بها " **الموضوع الفوري للإدراك والتفكير**"، لكن المزيد من البحث فيما يتعلّق بطبيعة هذا الموضوع يجعلنا نصطدم بصعوبات خطيرة [2].

في المقام الأول يقال أنّ "**الفكرة في العقل**"، أي أنّ محل وجودها في الذهن. هذا التصور طرح تأويلات مختلفة لعلاقة الفكرة بالذهن، فمن الصعب أن نحدّد العلاقة الدقيقة بالعقل. فعبارة [في العقل] هي بالتأكيد الأكثر غموضاً من بين العبارات المبهمة التي يستخدمها الفلاسفة، بالنسبة للأفكار ليست في حدّ ذاتها هي العقل (3). وبهذا فالأكيد أن الفكرة هي غير الذهن ولن تكون غير ذهنية. إنها محتوى ذهني، وموضوع فوري ومباشر للذهن بالدرجة الأولى[4] لكن ما يفترض أن تملكه، كما فسّر ذلك البروفسور "ألكسندر"***Alexander Samuel*** (1859-1938) في عمله عن لوك، بـ[شفق فجر]***Twilight*** ***existence*** بين العقل والموضوعات الفيزيائية للعالم الطبيعي[5].

في المقام الثاني، يزداد الغموض عندما نجد أنّ الفكرة قد تعني شيئين: أولاً هي تمثُّلية ***Representation***، أي تُمثّل الموضوع الذي اشتقت منه، وجوداً ما، أو كيفية من الكيفيات لوجود من العالم الخارجي الفيزيائي. لكن هذا لا ينسجم ونظرية لوك في الكليات. الفكرة الكلية ماذا تمثل في الوجود؟؟ ثانياً، هي مضمون كّلي منطقي، ويمكن أن نستشفّ ذلك من مراسلاته وجداله مع زميله ***Stillingfleet***،(1635-1699) فقد وجد هذا الأخير صعوبة في فهم ما يقصد لوك بالمادة، وبالحركة،

1 - *loc.cit.* .

2 - *Ibid,* p:101.

3 - Aaron, Richard. I., **John Locke,** *Op. cit.,* p:101.

4 - Raymond, George, **A Study of Locke's theory of knowledge**, Wilmington., Ohio, 1919, P: 20.

5 - Alexander. S, **Locke**, London, Archibald Constable and CO Ltd, 1908, p:32.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

وبالمدة، وبالضوء التي نملكها. فكان ردّ لوك أنّه يقصد بذلك الأفكار التي نملكها في أذهاننا عنها (1). فكرة المادة مثلاً هي ما أقصده عندما أستعمل لفظ مادة. لكن بهذا التصور، لا تفهم الفكرة هنا على أنّها تمثيلية، ولا تفهم أيضاً على أنّها شفق كما فسرها الكسندر، وقد انعكس هذا المفهوم الواسع والغامض للفكرة على نظرية المعرفة والإدراك عند لوك.

كما نشير في هذا السياق نفسه إلى ملاحظة البروفسور ألكسندر حين يشير إلى أن لفظ الفكرة لا يتضمن نظرية بالنسبة للوك، إنّه يعني ببساطة موضوع الفكر عندما نفكر، ولوك غير مبال في استخدامه للفظ حسبه، أحياناً يصف فكرة بالإشارة إلى القدرة التي أوجدتها، فكرة حسية هي إذن فكرة مزودة عن طريق الحس، والفكرة التأملية هي الفكرة الناتجة عن التأمل، وأحياناً أخرى بالإشارة إلى مضمونها مثلما يتحدث عن فكرة الحرارة(2) ، أو بعبارة أخرى الحرارة كما هي مجربة.

نعود لفكرة هامة قال بها الفيلسوف الديكارتي" مالبرانش"***Malebranche, Nicolas***(1638-1715) كان لها الأثر على لوك فيما يتعلق بمفهوم الفكرة أيضاً، وتعليق لوك على التمييز الشهير الذي قال به مالبرانش له أهميته في هذا المقام؛ وللتذكير أن **"مالبرانش"** ميّز بين العاطفة كشعور ذاتي وبين الفكرة الخالصة[***Pure idea***] كموضوع للمعرفة، يرى لوك تعليقاً على هذا التمييز، أنّه إذا كان يقصد بالعاطفة فعل الإحساس أو التأمل الذي تقوم به النفس في الإدراك، ويقصد بالفكرة الخالصة الموضوع الفوري للإدراك، فإنه يوجد أساس لإعطاء الأفكار الخالصة وجوداً حقيقياً أو جواهراً(3). وهذا ما جعل لوك يقرّ في إحدى رسائله إلى (***Stillingfleet***)* بأنه يستعمل الفكرة كما يستعملها "مالبرانش"، و"ديكارت"(4).

لكن هذا الاعتبار الأخير، أو افتراض أنّ الأفكار تملك وجوداً حقيقياً لا يعني شيئاً، بل يعدّ بمثابة سخرية طالما أنّنا اعتبرنا أنّه لا وجود في الذهن إلا ما هو مدرك، فكيف يمكن اعتبار أن الأفكار موجودة حتى ولو لم تكن مدركة. لكن لو رجعنا إلى معالجة لوك الحقيقية في المقال فإننا سنجد أن الأفكار تمتلك كلا الوجهين معاً (فعل الإدراك والموضوع المدرك)، بمعنى هي إدراك المضمون(الفعل)، والمضمون المدرك(الحقيقة الموضوعية) معًا، أو هي الوجود الفيزيائي والمضمون المنطقي معاً(5)، أمّا الوجه الأول

---

1 - Aaron, Richard I, **John Locke,** *Op.cit.,* p:101.

2 - Alexander. S, **Locke**, London., Archibald Constable and CO Ltd, 1908, p:29.

3 - Gibson, James, **Locke's Theory of Knowledge and its Historical Relations,** Cambridge at the University Press, 1917, P: 19.

* Stillingfleet. Edward: (1635-1699) مفكر بروتستانتي إنجليزي، دخل كلية جون بكمبردج سنة 1649. كانت له مراسلات مع لوك حول بعض الأفكار التي احتوتها فلسفة لوك مثل فكرة الجوهر.

4 - Aaron. R., **John Locke**، *op.cit.*, p:99.

5- Gibson. James, M.A, **Locke's theory of knowledge and its historical Relations**., Op.cit, p:19.

ISSN: 2253 – 0592 /الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

وهو اعتبار الأفكار لها حقيقة موضوعية يبدو بصورة لافتة للنظر أكثر في معالجته في الكتاب الرابع للعلاقات غير الزمانية للأفكار المجردة الذي تؤسس مضمون المعرفة الكلية، لكنها تبرز طوال مناقشته للأفكار في الكتاب الثاني طالما هي العناصر الوحيدة في تشكيل مواد المعرفة. وهذه الحقيقة الموضوعية للفكرة هي ما عبّر عنها بوضوح في تعريفه السابق للفكرة"..أي شيء يكون موضوعاً للفهم حين يفكر إنسان ما"([1]).

بقي أن نشير أيضاً، كما أشرنا إلى ديكارت، أنّنا نحصل على جميع أفكارنا-حسب لوك-من التجربة ***Experience***، «"ففيها تقوم كل معرفتنا وملاحظاتنا سواء انصبت على الموضوعات الحسية الخارجية، أو على عمليات العقل الداخلية التي ندركها ونتأملها، والتي تزود أذهاننا بكل مواد التفكير"[(2)] ". فحتّى الأفكار السامية فوق السحب قد انبعث من هذين المصدرين (الإحساس والتأمل)"[(3)].ويذهب بعيدا في تفصيل أنواع الأفكار: أفكار حسية وأخرى تأملية، وكل منهما قد تكون بسيطة أو تكون مركبة، ليناقش من خلال هذا جميع ما أمكنه مناقشته من قضايا فلسفية.

وهكذا فالتأرجح الذي وقع فيه لوك هو نفسه التأرجح الذي وجدناه عند ديكارت، وبنفس المفاهيم المعطاة للفكرة. بين الفكرة كموضوع للتفكير وبين الفكرة كفعل، ربّما هذا الذي جعل لوك يقرّ بأنّه يستعمل الفكرة تماما كما استعملها ديكارت ومالبرانش. وهو الذي جعل بعض النقّاد يعتقدون أنّ لوك قد استعار من ديكارت المفهوم. ولهذا عبّر الفيلسوف الأمريكي المعاصر" جيمس غيبسون" في دراسته التي أراد بها تقديم كتاب "الفهم البشري"، أنّه ممّا لاشك فيه أنّ التصور الكامل للأفكار كموضوعات حقيقية للمعرفة هي في أصلها ديكارتية، ويضيف وبأكثر حدّة حين يقول: "..بدون تأثير وجهة النظر الديكارتية في المعرفة، وبدون التصور الديكارتي للوعي الذاتي، ما كان للمقالة أن تكتب على الإطلاق"([4]) هذا التنوع والغموض في استعمال مصطلح الفكرة عند لوك كان له الأثر الواسع على النظرية التمثيلية في الإدراك والمعرفة(**Representative theory of perception and knowledge**) التي يمكن تلخيصها في أنّنا لا ندرك الشيء أو كيفية من كيفياته بصورة مباشرة، إنّما إدراكه ومعرفته لن تتمّ إلاّ من خلال الفكرة التي تمثّله، وهذا الشيء أو كيفية من كيفياته هو مصدر تلك الفكرة. فكيف يستقيم فهم النظرية التمثيلية في الإدراك والمعرفة عند لوك وكان الغموض والإرباك وعدم التحديد الدقيق في استعمال لفظ الفكرة ذاتها؟

---

[1]- *Ibid,* p: 20

[2] - Locke, John, .**An Essay concerning Human Understanding** , B:II, ch:1, sect:2, op.cit, PP: 121-122.

[3] - Ibid, B:II, .ch:1, sect:24, P: 142.

[4] - Gibson, James M.A, **Locke's theory of knowledge and its historical Relations,** Op.cit, p: 207.

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)

3-خاتمة :

ممّا سبق تقديمه من عرض لمفهوم الفكرة عند ديكارت ولوك، اللذين يؤسسان لاتجاهين يبدو أنّهما متناقضين عند الكثير من القرّاء، يمكننا أن نستنتج جملة من القضايا، هي خلاصة ما نعتقد أنّه مقبول بالنسبة لنا في هذا السياق:

1-إنّ العلاقة كما رسمت تاريخياً بين الفيلسوفين اللذين أسسا لأهم تيارات الفلسفة في العصر الحديث، إنّما أُسست بنظر الكثير في مجملها على قضية رفض لوك لأسس المذهب العقلي الذي أسسه ديكارت، ومن ثمّ كان لوك بهذا المعنى رافضاً لفلسفة ديكارت ككل وللديكارتية. خاصة بالنظر إلى الكتاب الأول الذي خصّه لرفض المبادئ والأفكار الفطرية التأملية منها والعملية.

2-يكاد يكون السياق العام الذي ظهر فيه لوك وديكارت واحداً، إذ يشتركان في الروح العامة التي تميزت بها الفلسفة الحديثة، كلاهما ثارا على الموروث الوسيطي، وكان لديهما شعور مشترك بالإصرار على هذه الثورة، وعرفا أن الإصلاح ضروري، كما عكسا روح ووجدان عصرهما والواقع الذي عاشا فيه، إضافة إلى أنّهما كانا فيلسوفين طبيعيين ورياضيين، وطبيعة دراستهما أبعدتهما عن الفلسفة السكولائية الخاطئة.

3-نحن ندرك أن كتابات ديكارت كان لها عظيم الأثر على اهتمامات لوك بالفلسفة، فقد بدأ دراسة الفلسفة في أكسفورد، أمّا اهتمامه بها فقد نشأ نتيجة قراءته لـ"ديكارت" أكثر مما كان قد تناوله في أكسفورد، ويعترف صراحة لأصدقائه بأن الكتب التي ألهمت إعجابه الكبير بديكارت وبفلسفة ديكارت هي مؤلفات "ديكارت" نفسه. ويعترف أيضاً أنّه كان على وعي كبير بالإرث الديكارتي.

4-من خلال ما قدّمنا، تتميز الفكرة من حيث المفهوم واستعمالها عند كل من لوك وديكارت بنفس الرؤية تقريباً، أي توصف بالاتساع في الاستعمال والغموض في المعنى معاً، إذ نلاحظ تردّدا في استعمالها بين أن تكون موضوع الإدراك والتفكير أو فعل الإدراك والتفكير من جهة، أو أن تمثل شيئاً خارج ذاتها من جهة ثانية.

5-وندرك من جهة ثانية أنّ هناك عناصر كثيرة تضمنتها فلسفة جون لوك هي من أساسيات فلسفة ديكارت، ومن أهمّها مفهوم الفكرة ودورها لمحوري في المعرفة، فما نستنتجه من هذا المقال هو أنّ مفهوم الفكرة عند لوك يكاد يكون نفسه مفهوم ديكارت لها.

6-الاختلاف في هذا الجانب يبدو لنا في **أهمية نوع الفكرة وفي مصدرها**، وليس في مفهومها، فإذا كان ديكارت يعطي الأهمية للفكرة الفطرية التي نجدها في نفوسنا وتوجد منذ الميلاد، فإنّ لوك يرجع كل أفكارنا إلى التجربة بنوعيها الحسية والتأملية.

لكن ما ينبني عن هذا المقال، ويكون فاتحة لبحث جديد هو: **إذا كان مفهوم الفكرة، كما رأينا، يكاد يكون متشابهاً وواحداً، إن لم يكن هو نفسه، بين لوك وديكارت، وإذا كان الكتاب الأول للوك قد خصّه لرفض المبادئ والأفكار الفطرية، فهل كان المقصود بهجوم لوك الشهير على المبادئ والأفكار الفطرية هو ديكارت بالذات والديكارتية من خلفه؟ أم يبقى الأمر أيضاً مجرد رأي شائع في تاريخ الفلسفة الحديثة يتطلب هو الأخر البحث ؟؟**

ISSN: 2253 – 0592/ الإيداع القانوني: 2751 – 2012 صنف (ج)